

انخراط الكنيسة الكاثوليكية في حقل الدراسات الإفريقية

التجربة التاريخية للأب جوزيف كيوك¹

أحمد الشكري

معهد الدراسات الإفريقية/ الرباط

عند منتصف القرن الماضي، أخذت الكثير من الدول الإفريقية تتحسس طريقها نحو الحرية والاستقلال، وواكب هذه التحولات السياسية، انتفاضة ثقافية سواء لدى الأفارقة أو الأوروبيين (المستعمر والمستعمر). وبناء على هذه المستجدات، تغيرت نظرة أوروبا تجاه إفريقيا، وبات الاهتمام العلمي المتحرر من الكثير من سمات المدرسة الاستعمارية أو ترسبات الحروب الصليبية، يفرض نفسه بشكل تدريجي في حقل الدراسات الإفريقية؛ ولعل أولى بواكير هذا التحول، تجلى في العمل الضخم الذي أنتجه المؤرخ الفرنسي ريموند موني: " لوحة جغرافية عن الغرب الإفريقي خلال العصر الوسيط" عام 1961².

وفي اعتقادي، يمثل عمل موني قطيعة حاسمة مع توجهات المدرسة الاستعمارية، حيث تفاعل مع موضوعه بمقومات الباحث الأكاديمي وباحترافية وحنكة عزّ نظيرهما، مما أكسب مؤلفه مصداقية معتبرة، حتى إنه أضحى إلى يوم الناس هذا، من الدراسات الأساسية التي لا يمكن لأي مختص القفز عليها أو تجاهلها؛ علما أن الطبعة الأولى للتأليف صدرت عام 1961، أي سنة تحرّر جلّ دول إفريقيا من الاستعمار الأوروبي.

¹ - يسعدني أن أقدم هذا المقال كدليل عرفان وتقدير لرائدة حقل الدراسات الإفريقية بالمغرب الأخت والزميلة الدكتورة فاطمة الزهراء طموح.

² - Mauny (R.), Tableau géographique de l'ouest africain au moyen âge, d'après les sources écrites, la tradition et l'archéologie, Amsterdam, 2 éd. Mémoires de l'IFAN, n° 61, 1967.

ما من شك أن مؤلف ريموند موني المنوه به أعلاه، يمثل علامة فارقة في حقل الدراسات الإفريقية، غير أن ذلك لا يعني خلو الساحة قبل العام 1961 من المختصين الغربيين ممن نأوا بأنفسهم عن نزعات المدرسة الاستعمارية وشطحاتها الفكرية. وبهذا الصدد، يمكننا أن نستحضر بعض الأسماء اللامعة، نخص بالذكر منها، العلامة تيودور مونود (Théodore monod 1902 - 2000)، الذي يعدّ من أكبر المختصين الفرنسيين في الصحراء الإفريقية. إذ على الرغم من كونه عاصر مرحلة الكتابات الاستعمارية، فإنه كان يتمتع بروح إنسية نادرة، حتى إنه عارض الحرب الفرنسية في الجزائر، وابتعد في كتاباته المتعددة عن النزعات العنصرية أو ذات الصبغة الاستعمارية، السائدة حينئذ في جل كتابات المختصين الغربيين؛ وبالجملة يمكننا القول إن أعماله كانت تتمتع بقدر كبير من الروح العلمية والموضوعية. وباعتبار ريموند موني أحد تلامذة العلامة تيودور مونود، فليس غريبا إذن أن يجتهد في الاقتداء بأستاذه.

في سياق هذه التطورات الإيجابية، لم تجد الكنيسة بدا من الانخراط في هذه الدينامية الجديدة، فأخذت هي الأخرى تهتم بالحالة الدينية للمجتمعات الإفريقية بشكل أكاديمي، بعيدا عن النزعات الشوفينية التي تعودناها في إطار الصراع المسيحي الإسلامي، الذي استعر خلال الحروب الصليبية منذ القرن 11م، وترك أثارا عميقة في نفسية الطرفين على امتداد القرون اللاحقة، وهي آثار ما نزال نجتر تبعاتها، خاصة لدى مجتمعات حوض البحر الأبيض المتوسط؛ ثم جاءت المرحلة الاستعمارية، وانتقل معها الصراع فيما بين المسيحية والإسلام لجوف القارة الإفريقية، حيث تم توظيف الدين في تثبيت أو مقارعة الاستعمار الأوروبي. وعلى الرغم من الإمكانيات التي توفرت للغرب المسيحي وقتئذ، فإنه لم يسلم من الانتقادات اللاذعة حتى في المعازل التي تطورت بها المسيحية منذ قرون خلت³.

وتبعاً للتحويلات أو المخاض الذي كانت تعرفه الكنيسة، خاصة بعد عشرة السنين من القرن الماضي، ظهر توجه بارز لدى مجموعة من الأساقفة، حاول استلهاهم . أو بالأحرى اصطناع . المنهج الأكاديمي في الأعمال التي يقدمها. وبموازاة مع ذلك، اجتهد ذات التوجه في التكفير عن آثام الكنيسة المسيحية تجاه الأديان والتحل الأخرى. ولعل من أهم الأسماء التي تصدرت النتوجه الجديد، ووهبت حياتها لخدمة مسألة التقارب والتسامح الديني، خاصة بين المسيحية والإسلام في الأرض الإفريقية: الأب والمستشرق لويس غارديه (Gardet Louis) والأب المستعرب والمؤرخ جوزيف كيوك (Joseph Cuoq)، والأب المستعرب موريس بورمان (Maurice Borrmans) وغيرهم.

وبحكم الاختصاص والاهتمام، سنحاول التركيز في هذه الدراسة، على أعمال الأب جوزيف كيوك، باعتباره من أهم رجال الكنيسة المسيحية، الذين تابعوا بعدة الباحث المؤرخ، صيرورة تجربة المسيحية والإسلام بالقارة الإفريقية، خلفا مجموعة من الدراسات الرائدة في حقل الدراسات الإفريقية.

1/ سيرة الراهب الباحث: Joseph CUOQ (1917-1986)

³- يقول جومو كينياتا (JOMO KENYATTA) زعيم الأمة الكينية وأشهر رئيس للجمهورية الكينية (1964-1978): "حينما جاء البيض الأوروبيون لإفريقيا، كنا نملك الأرض، وهم يحملون التوراة في أيديهم، ثم علمونا كيفية إقامة الصلوات بعيون خاشعة ومغمضة، بيد أنه حينما فتحنا عيوننا، وجدناهم يملكون الأرض، ونحن نأخذ التوراة بين أيدينا". انظر متن النص الفرنسي في:

على الرغم من أهمية الأعمال التي قدمها الأب جوزيف كيوك (الفرنسي الجنسية) في حقل الدراسات الإفريقية، فإن المختصين في الميدان تجاهلوا سيرة الرجل وإنجازاته، ولولا مبادرة أحد أصدقائه المقربين (جان فونتين: Jean Fontaine)⁴، ما كانت الظروف تسمح بالوقوف على بعض جوانب حياته المهنية وسفرياته المتعددة بإفريقيا.

مباشرة بعد وفاة جوزيف كيوك عام 1986، نعاه جان فونتين في كلمة تأبينية نشرها في مجلة معهد الفنون الجميلة بتونس العاصمة (IBLA)، حيث قدّم ترجمة مختزلة للرجل، ضمّنها لائحة بجلّ الدراسات والمقالات التي أنجزها ونشرها جوزيف كيوك منذ عام 1944 إلى غاية 1986⁵.

بدأ كيوك حياته الرهبانية بأحد كنائس الجزائر العاصمة عام 1936، ثم سرعان ما تدرج في سلم الرهبانية إلى أن رقيّ أبا (Prêtre) بتونس العاصمة بعد العام 1940 بقليل. وبغاية تعميق معرفته باللغة والثقافة العربية الإسلامية، انتسب لمعهد الفنون الجميلة الذي يصدر مجلة إيبلا (IBLA)، وظل يتابع أبحاثه بها إلى حدود عام 1946، ونفس السبب حمله للسفر إلى لبنان حيث قضى به ثلاث سنوات.

وقبل أن يعود للإقامة بحي القصبة بالجزائر العاصمة عام 1954، أقام بباريس لمدة خمس سنوات، ساهم أثناءها في تأسيس إحدى المجلات التي اهتمت بشؤون المغاربة بفرنسا (Cahier Nord Africains). وأثناء عمله بالجزائر تمكن من نسج علاقات وطيدة مع العديد من رموز الحركة الوطنية المناهضة للاستعمار الفرنسي؛ وبموازاة مع ذلك، تابع اهتماماته العلمية، فساهم في العديد من الأنشطة، منها إصداره للنشرة المتعلقة بالعالم العربي⁶. وقد أبان كيوك من خلال كتاباته في هذه النشرة عن رغبة عميقة في تحقيق التفاهم ما بين الشعوب والديانات.

⁴ - ازداد بشمال فرنسا نهاية عام 1936، انتمى للكنيسة كراهب، وتخصص في الثقافة العربية، خاصة منها الثقافة العربية التونسية؛ وأثناء إقامته بتونس العاصمة، أصبح محافظا لخزانة معهد الفنون الجميلة خلال الفترة المتراوحة ما بين 1968 و1977، وهي ذات الفترة التي شهدت توطد علاقته بالأب جوزيف كيوك، وبعد ذلك ترأس لجنة تحرير المجلة (IBLA) التي تصدرها نفس المؤسسة فيما بين 1977 و 1999.

⁵ - انظر مجلة إيبلا، عدد 158، النصف الثاني من سنة 1986. ص 387-388. وتشكل كلمة جان فونتين عمدتنا في التعريف بمراحل حياة جوزيف كيوك:

Revue IBLA, N°158, 2è Semestre 1986. pp: 387-388.

⁶ - Bulletin d'information sur le monde arabe.

وحيثما عاد إلى روما عام 1965، كلفته الكنيسة الأم بشعبة خاصة بشؤون غير المسيحيين؛ وقد كان طبيعياً، بحكم تجربته الحياتية بعدد من البلدان العربية الإسلامية، أن يتفرغ في مهمته الجديدة لقضايا الإسلام والمسلمين، مما حفّزه على المزيد من الاحتكاك بواقع المجتمعات الإسلامية، فقام بزيارات متعددة للكثير من الدول الإفريقية ذات الغالبية الإسلامية أو تلك التي بها جالية إسلامية ضعيفة. وغني عن البيان، أن سياحته هاته، أخصبت رصيده المعرفي بواقع الإسلام والمسلمين، مما حمل الكنيسة على مطالبته صحبة زميله الأب [و] المستشرق لويس غارديه (Louis Gardet) بإخراج الوثيقة المشهورة: " من أجل الحوار ما بين المسيحيين والمسلمين" عام 1970.⁷

وما كاد ينتصف عقد السبعينات من القرن الماضي، حتى عاد مرة أخرى لتونس، ثم قدّم طلباً للانتماء لمعهد الفنون الجميلة عام 1977. ويظهر أن هذه المرحلة من حياته شهدت نشاطاً علمياً متوقداً، حيث أخرج الكثير من أعماله، كما ساهم بنشاط وافر في تنظيم مكتبة مجلة المعهد (التي كان يشرف عليها وقتئذ زميله جان فونتين)، غير أن ظروفًا صحية أَلَمَت به، فاضطر للعودة إلى باريس عام 1982.

ويظهر جلياً من خلال سيرة وأعمال جوزيف كيوك أنه كان من الرجال المؤمنين بواجب الاعتراف المتبادل فيما بين المسلمين والمسيحيين، كما أنه آمن بضرورة خلق أجواء الاحترام والتقدير فيما بين المجتمعين والديانتين، ناهيك عن اجتهاده في توطيد عرى الصداقة بينهما. وإذا جاز لأحد أن يختزل سيرة الرجل في كلمة واحدة جامعة، يمكننا القول . مع جان فونتين . إنه كان : " من الرجال العظماء".

ولعل أهم ما يستوقفنا في ترجمة كيوك، سياحته الطويلة التي ناهزت أربعة عقود في جِلّ البلدان العربية الإسلامية والبلدان الإفريقية ذات الغالبية الإسلامية أو تلك التي نجد بها جالية إسلامية إلى جانب الجالية المسيحية. من ثمة، يمكننا القول بأن احتكاكه بالمسلمين ومعرفته بنفسيتهم كانت عميقة وراسخة.

⁷ - Orientations pour le dialogue entre chrétiens et musulmans. 140 p.

يقول الأبوان جوزيف كيوك ولويس غارديه في الكتاب الذي أصدره باسم الفاتيكان عقب المؤتمر الفاتيكاني الثاني عام 1965 . ضمن أمور أخرى: " يجب علينا كمسيحيين؛ ونحن نخاطب المسلمين؛ أن نفكر قبل كل شيء في صعوبات وعوائق الحوار [مع المسلمين] والتي تتعلق بنا إلى حدّ كبير، وإلى الظلم والجور الذي أحاط به الغرب ذو التربية المسيحية المسلمين؛ واقترب ذنوباً وأثاماً عديدة بحقهم [...] إن المسيحيين أوقفوا؛ بل حطّموا انطلاقتهم الحضاري نتيجة الحروب الصليبية التي أسهمت بوضع حدّ لأكثر الأوقات ازدهاراً في التاريخ الإسلامي. يضاف إلى هذا الاستعمار... الذي حال دون نهضتهم التي بدأت بشائرها تظهر في القرن التاسع عشر... علينا أن نعتزف بكل أمانةٍ وصدقٍ بالمظالم التي ارتكبتها الغرب [...]". نقلاً عن رضوان السيد في مقدمة ترجمته لكتاب ريتشارد سوزن: " صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى". بيروت: معهد الإنماء العربي، الطبعة الأولى 1984. ص 9-10.

وبموازاة مع ذلك، فإن تمكّنه من اللغة العربية وإطلاعه الواسع على عيون مصادر التراث العربي الإسلامي، جعله على دراية تامة بقيمة وأبعاد الثقافة العربية الإسلامية، مما مكّنه . بفضل ما توفر لديه من أدوات معرفية أكاديمية . من فهم ماضي وحاضر المسلمين بشكل دقيق وعميق. في ضوء ما تقدم، توجهت عنايته للاشتغال حول قضيتين أساسيتين:

أ . تاريخ الإسلام والمسلمين خاصة في دول إفريقيا جنوبي الصحراء .

ب . إنعاش الحوار فيما بين الإسلام والمسيحية، وترسيخ مبادئ التفاهم بين الديانتين.

ويتأكد لنا مدى انخراط واهتمام كيوك بالموضوعين من خلال استعراضنا لعناوين الدراسات التي أنجزها:

- Recueil des sources arabes concernant l'Afrique occidentale du 8^{ème} au 16^{ème} siècle (Bilad al Sudan), Paris, CNRS, 1975.
- Les musulmans en Afrique, Paris, G. P. Maisonneuve et Larose, 1975.
- La famille Aqît de Tombouctou, Revue de l'Institut des Belles Lettres Arabes, 1978, n°41, premier semestre, p. p. 85-102.
- *Journal d'un notable du Caire pendant l'expédition française d'Egypte (1788-1800)* de Jabarti, Paris, Albin Michel, 1979.
- L'Islam en Ethiopie: des origines au XVI siècle, Paris, nouvelles éditions latines, 1981.
- Tunis et Alger au XVIIIe siècle, Paris, Sindbad, 1983.
- Histoire de l'islamisation de l'Afrique de l'ouest des origines à la fin du 16^{ème} siècle, Paris, Geuthner, 1984.
- L'Eglise d'Afrique du Nord du IIe au XII siècle, Paris, centurion, 1984.
- Islamisation de la Nubie chrétienne: VIIe-XVIe siècle, Paris, Geuthner, 1986.

والمتتبع لأعماله، لن يجد صعوبة في الوقوف عند التداخل والتشابك العضوي والمنهجي ما بين القضيتين عند كيوك، غير أن اهتمامنا سينصب حاليا على استقراء كتاباته ذات الصلة بالقضية الأولى (تاريخ الإسلام والمسلمين بدول إفريقيا جنوبي الصحراء)، على أن نعود للقضية الثانية في فرصة قادمة.

2/ كيوك المؤرخ لتاريخ الإسلام والمسلمين بإفريقيا جنوبي الصحراء

إن أول ما يمكن أن يلفت نظر المتتبع لأعمال كيوك، إنما يتمثل في قدرة صاحبنا على افتكاك القارئ وتحريه من الأفكار المسبقة والأحكام الجاهزة الموروثة عن زمن الحروب الصليبية إلى درجة أن القارئ المتدين أو غيره، لا يمكنه أن يفكر بتاتا في العلاقة ما بين المؤرخ والراهب؛ بل إن ما يستقر في ذهننا، بعد سياحتنا معه في أعماله، هو الإنسان الباحث والأكاديمي المتمرس لا غير.

علاوة على ذلك، فإن أسلوبه العلمي الدقيق، لا يقدم للقارئ إنتاجا معلبا قابلا للاستهلاك السهل، بل يدفعه دفعا لممارسة قراءة نقدية لما يقدمه، ويحفزه على النظر والتأمل وإعمال الفكر أكثر مما يقدم له إجابات عن إشكاليات تاريخية مطروحة.

ومن السمات البارزة في أعماله أيضا، أن مؤرخنا تجاوز مسألة الفهم إلى التفهم بتعبير عبد الله العروي، دون أن يغمس في لعبة التأويل المغرض أو تقلد منصب الإفتاء بغاية إصدار أحكام القيمة؛ وبذلك حقق تميزا قلما نصادفه حتى في الدراسات التي تدعي انتماءها للمجال الأكاديمي البحث.

وغير خاف، أنه بحكم حداثة حقل الدراسات الإفريقية، فضلا عن أسباب أخرى، فإن الكثير من المختصين يجدون أنفسهم مندفعين لإصدار أحكام القيمة، خاصة منهم المهتمين بالشأن الديني بإفريقيا جنوبي الصحراء. وفي هذا الإطار، نلاحظ نوعا من الاستعلاء في تعاطيهم مع المعتقدات الإفريقية (الأرواحية) السابقة عن المسيحية والإسلام⁸. صحيح قد نلاحظ أو نشتم رائحة مثل هذا الاستعلاء لدى عدد غير قليل من المؤلفين المسلمين ممن تناولوا جغرافية أو تاريخ منطقتنا خلال العصر الوسيط⁹، بيد

⁸ - الأرواحية مصطلح حديث، يستعمل في حقل الدراسات الإفريقية للدلالة على المعتقدات السودانية الأصلية. والاصطلاح ترجمة للكلمة الفرنسية: Animisme أو Fétichisme. انظر: - Monteil (V.), L' Islam Noir, Paris, Ed. du Seuil, 3^e ed., 1980. p 39.

⁹ - يقول الجغرافي الأخطري حوالي عام 951م: "أما بعد فإنني ذكرت في كتابي هذا أقاليم الأرض على الممالك وقصدت منها بلاد الإسلام بتفصيل مدنها وتقسيم ما يعود بالأعمال المجموعة إليها [...] ولم نذكر بلد السودان في المغرب والبيجة والزنيج ومن في أعراضهم من الأمم لأن انتظام الممالك بالديانات والآداب والحكم وتقويم العمارات بالسياسات المستقيمة وهؤلاء مهملون لهذه الخصال ولا حظ لهم في شيء من ذلك فيستحقون به أفراد ممالكهم بما ذكرنا به سائر الممالك". انظر: الأخطري، كتاب مسالك الممالك، ليدن، 1927، تحقيق دي كوجي. ص 2-3.

أنه استعلاء يمكن أن نتفهمه بحكم السياقات التاريخية للفترة؛ كما قد تتسع أريحيتنا أيضا لنتفهم ذات الاستعلاء مع كتابات المدرسة الاستعمارية خلال القرن 19م. على أن استمرار هذا النهج في الكتابات الأكاديمية خلال النصف الثاني من القرن العشرين ومطلع القرن الحالي، يطرح أمامنا أكثر من علامة استفهام. ومن آخر هذه الشطحات، ما ورد في خطاب الرئيس الفرنسي السابق نيكولا ساركوزي الذي ألقاه في جامعة الشيخ أنتا ديوب / دكار عام 2007، ومما جاء في كلامه: "إن الإنسان الإفريقي لم يلج التاريخ بعد"؛ وقد أثارت هذه المقولة جدلا واسعا في جلّ المحافل الأكاديمية والصحافية الإفريقية والفرنسية على امتداد السنوات الأربع الموالية¹⁰.

وحيثما ينتقل ذات المختصين (المهووسين بأحكام القيمة) للحديث عن تجربة الإسلام ببلاد السودان¹¹ وإفريقيا جنوبي الصحراء عموما، تجدهم يؤكدون على انتشاره بالمدن السودانية دون البوادي، أو بين النخبة الحاكمة دون باقي فئات الشعب، مما يعني أن الإسلام خلال العصر الوسيط، فشل في احتواء الذهنية السودانية؛ ولتبرير موقفهم، يستندون على نظرية الصراع الأبدي بين الرُّحل (أهل الصحراء) والمستقرين (أهل السودان). وههنا، لا يكلف أحد نفسه الجواب عن السؤال التالي: كيف أمكن ازدهار التجارة الصحراوية خلال العصر الوسيط في ظل هذا الصراع المستحکم ؟ !

وفي ذات المنحى، يلاحظ المتتبع أن تطور النظريات المتعلقة بمفهوم الدولة خلال القرن العشرين، شكل سندا أو بالأحرى معولا في تشريح البنية السياسية للمجتمع السوداني، فانتهى بعضهم إلى القول بغياب مؤسسة الدولة في منطقتنا؛ ومنهم من فند هذا الإدعاء، فأقر بوجود الدولة، لكن إقراره جاء مشروطا بنظرية أفدح من الأولى: مثل نظرية الأصل العسكري للدولة السودانية¹². كل هذه الشطحات

¹⁰ - Voir le site : le Monde diplomatique, novembre 2007.

¹¹ - بغض النظر عما تثيره مسألة تعيين الحدود من صعوبات قبل المرحلة الاستعمارية، يمكننا القول . إجمالا . إن مجال بلاد السودان يمتد من المحيط الأطلسي (في جزئه السنغامي) غربا إلى حواشي بحيرة التشاد شرقا، فيما تنتصب الحدود العمودية بين الضفة الجنوبية للصحراء الكبرى ومقدمة نطاق الغابات الاستوائية. وحسب الإحداثيات المعاصرة، تنحصر بلاد السودان فيما بين خطي عرض 11 و 17 شمالا. وبجانب هذا الاصطلاح الأصيل الذي تواضع على تداوله أصحاب مصادر العصر الوسيط والحديث، يروج في الدراسات الأكاديمية عدد آخر من الاصطلاحات الحديثة، التي تؤدي . تقريبا . نفس المعنى والدلالة، وهي: السودان الغربي، وإفريقيا الغربية، والسودان النيجيري، والفضاء السنغامي.

¹² - أحمد الشكري، الذاكرة الإفريقية في أفق التدوين إلى غاية القرن 18م (نموذج بلاد السودان)، الرباط: منشورات معهد الدراسات الإفريقية، 2010. ص 77-83.

وغيرها مما يضيق به المقام، تؤكد على مدى التساهل المعرفي الذي سيطر على أعمال الكثير من المختصين والمهتمين في تعاطيهم مع تاريخ إفريقيا.

وبالمقارنة مع هذه التوجهات التي كثيرا ما أساءت لتاريخ إفريقيا، وحاولت أن تجرد الأفارقة من أصالتهم، تأتي أعمال الأب جوزيف كيوك، لتمنحنا أفقا أكاديميا جديرا بكل الاعتبار والتقدير؛ وكل من تابع أعماله يحس أنه أمام مؤرخ محترف، يملك حنكة قلما نصادفها في أعمال الأعاجم، خاصة في دراساته المتعددة حول قضية الإسلام بإفريقيا جنوبي الصحراء. وقد لا نجانب الصواب إذا أكدنا على أن كيوك يعدّ بحق قطبا في هذا المجال؛ وما من شك أن أهم العوامل التي سمحت له بهذا التميز، إتقانه للغة العربية¹³ وإطلاعه الواسع على أهم مصادر الثقافة العربية الإسلامية.

وهاتين الميزتين لم تتوفر إلا للقليل من الإفريقيين المشتغلين في حقل الدراسات الإفريقية كما ألمعنا إلى ذلك قبل قليل¹⁴. وتأتي مدونته (Recueil des sources arabes) التي ترجم فيها للفرنسية أهم النصوص العربية ذات الصلة بتاريخ إفريقيا الغربية فيما بين القرنين 8 و 16 للميلاد¹⁵، لتؤكد على ما نذهب إليه.

¹³ - يجمع المختصون على أن معظم المواد المصدرية المتعلقة بإفريقيا جنوبي الصحراء خلال العصر الوسيط (القرن 8-16م)، إنما هي أصلا باللغة العربية. على أن الكثير من الإفريقيين الأعاجم، أهملوا هذا الجانب، واكتفوا باعتماد الترجمات. إن هي توفرت. الفرنسية أو الإنجليزية للنصوص العربية. وغير خاف أن هذا التوجه، كانت له آثار سلبية على أعمال الكثير من الإفريقيين غير المستعربين، بما فيهم الرواد الذين أفنوا حياتهم في هذا الحقل المعرفي مثل جان دوفيس وريموند موني (J. Devisse & R. Mauny).

ويعدّ جوزيف كيوك بجانب الباحثة الأمريكية جان هانويك (John Hunwick) من أكبر المستعربين الأعاجم في حقل الدراسات الإفريقية، مما أكسب أعمالهما قيمة لا تضاهى. وقد أدرك الباحثة الألمانية ديرك لانجي، أهمية الاستعراب في هذا الميدان، خاصة بالنسبة للعصر الوسيط (القرن 8-16م)، فسار على هديهما، علما أنه في بداية أمره كان يستعين بمساعدين في قراءة النصوص العربية، ثم سرعان ما تدارك الأمر واضطر لتعلم اللغة العربية بعد عام 1977. انظر مقدمة تحقيقه لـ "ديوان سلاطين [كانم-] برنو"، ص 21.

Dierk (L.), Le Diwane des sultans du [Kanem-] Bornu : Chronologie et histoire d'un royaume africain (de la fin du X siècle jusqu'à 1808), Franz Steiner Verlag GMBH. Wiesbaden. 1977.

¹⁴ - نلف الانتباه هنا، أن بعض الزملاء العرب يطلقون اصطلاح " الإفريقياني = Africaniste " على كل مختص في حقل الدراسات الإفريقية؛ ومثل هذا الاستعمال يتحرج منه الباحثون الأفارقة، ويعتبرونه قاصرا على المختصين من خارج إفريقيا.

¹⁵ - بالنظر لكثرة أعمال جوزيف كيوك، سنتوقف هنا عند أهمها:

وتعتبر هذه المدونة من أدوات العمل الأساسية لدى المختصين في حقل الدراسات الإفريقية خلال العصر الوسيط. وقد يتهياً للبعث أن دائرة الانتفاع والاستفادة منها قاصرة على الأعاجم غير المستعربين، لأنها تريحهم من عناء متابعة الترجمات الفرنسية أو الإنجليزية للمواد المصدرية العربية ذات الصلة بتاريخ إفريقيا جنوبي الصحراء؛ بيد أن فضل المدونة . في اعتقادي . يشمل جميع المختصين، سواء كانوا عرباً أو أعاجم.

فهي أولاً تضع بين أيدينا جَلّ النصوص العربية المتعلقة بإفريقيا خلال العصر الوسيط، وبذلك توفر علينا وقتاً ثميناً ومجهوداً لا يستهان به في سبيل الوقوف عليها في مظانها. زد على ذلك أن طريقة اشتغال كيوك على تلك النصوص العربية، وكيفية تقديمها وشرحها، تُيسّر على الباحث كل السبل الممكنة في استغلالها، فمؤرخنا يطرح النص مترجماً للفرنسية بدقة متناهية، وقبل ذلك يعرفنا بصاحبه بشكل مختزل جداً مع الإشارة لمجمل المعطيات المتعلقة بالتأليف المعني بالترجمة (هل هو مخطوط أم محقق، وفي أية سنة صدر التحقيق ومن حققه). وعلى هامش الترجمة، يقدم كيوك مجموعة من التعليقات والتوضيحات المفيدة في القراءة السليمة للنص سواء على المستوى اللغوي أو الاصطلاحي.

وتبعاً لهذه المنهجية، كان يتوقف عند كل كلمة أو اصطلاح غامض أو ملتبس، فيأخذ في شرحه، مثلما فعل مع كلمة " تبر" ¹⁶، أو مفهوم " النيل السوداني" ¹⁷؛ وحينما يحس أن حقل الدراسات الإفريقية يعاني من مشاكل عويصة في قضية ما، وأن بإمكانه تقديم مستجدات مفيدة بناء على ما تحت يده معلومات مصدرية، فإنه لا يتورع عن الاستفاضة في التوضيح، حتى إن ما كتبه مثلاً عن قبيل " زغاوة" في مجمل تعليقاته الكثيرة، يمثل دراسة أصيلة عنهم ¹⁸.

- Recueil des sources arabes concernant l'Afrique occidentale du 8^{ème} au 16^{ème} siècle (Bilad al Sudan), Paris, CNRS, 1975. 2^o ed. 1985.

- Histoire de l'islamisation de l'Afrique de l'ouest des origines à la fin du 16^{ème} siècle, Paris, Geuthner, 1984.

¹⁶- Recueil des sources arabes concernant l'Afrique occidentale, p 42 note n° 5.

¹⁷ - Ibid., p. 241 note 2 et p. 242.

¹⁸- Ibid., p. 4, 5, 10, 13, 21, 41, 44, 49, 52-53, 60-69, 73-78, 138, 141, 145, 151-152, 165, 187, 210-211, 217, 222, 240, 243, 246, 250, 329, 332, 342, 382, 385-386, 396.

ونعتقد أن أهم إضافة تقدمها المدونة للمختصين، إنما تمثلت في اجتهاد كيوك وعمله الحثيث على تنبيه القارئ وتوجيهه نحو الروابط والعلائق المختلفة بين النصوص المترجمة خلال الفترة المعنية (8-16م)، وذلك بناء على مَقوم السند، الذي غذى الثقافة العربية الإسلامية في الكثير من الحقول المعرفية وقتئذ، ومنها علم الحديث النبوي وصناعة التاريخ. وفي هذا السياق، كان مؤرخنا عند ترجمته لأي نص، يعرض للمستجدات التي يطرحها مقارنة مع نصوص السابقين أو اللاحقين من المؤلفين العرب؛ وبذلك توفّق إلى حد بعيد في متابعة جَلّ وأهم القضايا التي تطرحها المصادر العربية المتعلقة بإفريقيا جنوبي الصحراء خلال العصر الوسيط.

وإذا كان لأحد أن يؤاخذ كيوك على عدم إثباته للنصوص العربية في متن المدونة بموازاة مع الترجمة الفرنسية، فإن المدقق في الأمر، سيلاحظ أن صاحبنا كان قمة في النزاهة والأمانة العلمية، ودليلنا على ذلك أنه حين ترجمته لأي نص كان يعتمد على التحقيقات المتوفرة، بيد أنه إذا شك في عبارة أو كلمة أو طريقة رسم علم بشري أو جغرافي، فإنه لا يتورع عن الرجوع إلى أصل المخطوط للتأكد. ونصادف في عمله الكثير من النماذج الدالة بهذا الشأن، نكتفي منها بحالة تعامله مع كتاب الجغرافي ابن سعيد المغربي: "بسط الأرض في الطول والعرض"، حيث وجد أمامه العبارة التالية: "الموحدين يسيطرون على جبل لمتونة" (ص 46 من طبعة تطوان)، فغشيه نوع من الشك والارتياب بخصوص كلمة الموحدين، مما حفزه على مراجعة المخطوط الأصلي، وفعلا صدق ظنه، حيث وجد كلمة الملمثمين، فأثبتها عوض كلمة الموحدين الواردة في تحقيق طبعة تطوان¹⁹.

بعد حوالي عقد من الزمان على الإصدار الأول لمدونة النصوص العربية، أخرج كيوك كتابه الرائع الذي يحمل عنوان: تاريخ الإسلام [أو الأسلمة] بإفريقيا الغربية: من الأصول إلى غاية نهاية القرن 16م²⁰.

¹⁹ - ابن سعيد المغربي، بسط الأرض في الطول والعرض، تطوان: معهد مولاي الحسن، 1957. تحقيق: خوان فرنيط خنيس. وتجيب الإشارة هنا إلى أن نفس الكتاب ظهر بعنوان آخر: كتاب الجغرافيا، بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر، 1970. تحقيق: إسماعيل العربي. ويظهر أن جوزيف كيوك لم يستأنس بالتحقيق الأخير، لأسباب خارجة عن إرادته، إذ إنه انتهى من تأليف المدونة منذ مطلع عام 1971، علما أن إسماعيل العربي هو الآخر صحح خطأ خوان فرنيط خنيس.

²⁰ - Histoire de l'islamisation de l'Afrique de l'ouest des origines à la fin du 16^{ème} siècle, Paris, Geuthner, 1984.

وقد قسم دراسته إلى قسمين أساسيين، الأول منهما تتبع فيه بتفصيل دقيق تجربة انتشار الإسلام بإفريقيا الغربية منذ بداياته الجينية إلى غاية القرن 13م، وذلك ضمن الحدود الجغرافية لبلاد السودان (التي وقفنا عليها سابقا: هامش رقم 11)، وتمكن بفضل معاشرته للنصوص العربية أن يرسم صورة واضحة عن كيفية تغلغل الإسلام بشكل تدريجي بين مختلف شرائح المجتمع السوداني قمة وقاعدة، ثم كيف ظهرت بعض الإمارات المسلمة بالمنطقة عند ملتقى القرنين 10 و11م، مثل إمارة كوكو المعروفة أيضا تحت اسم (كاغ = GAO) والتي ستصبح عاصمة إمبراطورية سنغاي خلال القرن 15م، وإمارة مل: مركز إمبراطورية مالي لاحقا، وإمارة تكرور. ولم تقته الفرصة هنا للحديث عن تعايش الإسلام والأرواحية في ظل حكم مملكة غانة خلال القرن 11م، ونفس الشيء فعله حينما تناول تاريخ مملكة كانم-برنو بحوض بحيرة التشاد.

أما القسم الثاني فتحدث فيه عن الإسلام كمرجعية للدولة السودانية، وفي هذا السياق تناول تاريخ الدول التالية: مملكة مالي، ومملكة سنغاي، ومملكة كانم-برنو. ويمكن القول إن أهم المحاور التي شغلته في القسم الثاني، تمثلت في كيفية تدبير حكام السودان للشأن الديني، وعلاقاتهم المتميزة بالعلماء والفقهاء؛ وفي هذا الإطار، كانت الفرصة مواتية للحديث عن عدل الملوك والأمراء السودان، وكذا إلحاحهم على قضاء فريضة الحج فيما بين القرنين 11 و16م. بموازاة مع ذلك، حاول كيوك على امتداد صفحات القسم الثاني تتبع تطور الثقافة العربية الإسلامية بالمنطقة، وكيف تبلورت نخبة سودانية عالمية، وما هي أهم مساهماتها العلمية إلى نهاية القرن 16م.

3/ السمات المنهجية المميزة لأعمال جوزيف كيوك:

* إن صنعة التاريخ بالنسبة لمؤرخنا، تتمثل أساسا في توثيق الخبر قبل كل شيء مع ما يستلزم ذلك من ذكاء في التعامل مع المادة المصدرية سواء من حيث المعالجة أو استنطاق المعطيات، ظاهرها وباطنها.

* شديد الحذر في خلاصاته واستنتاجاته، ولا يطلق الكلام على عواهنه. ونلمس منه رغبة قوية في إقناع القارئ بالدليل المقنع البعيد عن التكلف أو الشطحات السكولائية، غير أنه. وهذا ما يميزه أيضا. لا يذهب بعيدا عند تناول القضايا الشائكة والملتبسة، بل يحاول ملامستها ومقاربتها دون الجرأة على

الحسم فيها؛ فهو لا يغامر كثيرا في بناء تصوراته مثلما فعل ريموند موني أو غيره من المختصين. وغالبا ما كان يقف عند أولى العتبات التأويلية تاركا الباب مفتوحا أمام القارئ لاستخلاص التصورات الكبرى؛ يشهد على ذلك، طريقة تناوله لقضية " الغزو المرابطي لمملكة غانة"، حيث لا نتبين رأيه الصريح في المسألة، فلم يؤكد لنا غزوا ولا عكس ذلك، بل ظل عالقا بين الموقفين²¹.

* بالنظر لقلة وفقر المواد المصدرية المتعلقة بتاريخ إفريقيا جنوبي الصحراء خاصة بالنسبة للعصر الوسيط والحديث، أخذت الرواية الشفوية المحلية تأخذ مكانها تدريجيا ضمن اللوائح البيبليوغرافية؛ ولم يعد أحد اليوم يجادل في أهمية الرواية الشفوية السودانية كمادة أساسية ضمن لائحة مصادر تاريخ إفريقيا؛ وقد كان على جوزيف كيوك مثل غيره ممن يقتحمون الميدان، أن يواجه هذه الإشكالية العويصة.

قلنا قبل قليل إن كيوك كان شديد الحذر في استنتاجاته، ورصين غير مندفع في بناء تصوراته، غير أنه حينما وجد نفسه أمام الرواية الشفوية، بدا أكثر جرأة في التعامل معها، حيث تجاهلها بشكل تام، وأظهر بشكل عملي من خلال تناوله لتاريخ إفريقيا جنوبي الصحراء خلال العصر الوسيط، أنها لا تمثل بالنسبة لأعماله سوى مادة يمكن الاستئناس بها لا غير. بيد أن هذا الموقف الصريح من الرواية الشفوية، لم يمنعه من الاتكاء عليها في بعض القضايا الثانوية، مثلما وقع له حينما أراد تحقيق تاريخ إسلام أهل كوكو²².

* على المستوى اللغوي: يعتمد أسلوبه لغة اختزالية قوية الحمولة وشديدة الثقل، فضلا عن تمتعها بإيحائية وجمالية فريدين (تذكرنا أو بالأحرى تدفعنا لاستحضار كتابات فيرناند بروديل بكل ما يحمل هذا الاسم من أبعاد في مدرسة الحوليات). على أن هذه السمات التي تتمتع بها كتابات كيوك وإن كانت ممتعة علميا وأدبيا، فإنها لا تسمح لغير المختص باختراق أبعادها ودلالاتها. وبعبارة أكثر دقة، فإن القارئ العادي قد يستمتع بها بسبب وضوح الرؤية لدى كيوك، غير أنه لن يستطيع استكناه المقاصد المرجوة، والسبب في ذلك يعود إلى كون مؤرخنا يفترض مسبقا أن القارئ له بعض الإلمام أو معرفة لا يستهان بها بطبيعة المشاكل المنهجية والموضوعية التي تطرحها مسألة كتابة تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء.

²¹ - للإحاطة بأبعاد القضية، يمكن الرجوع لدراستنا: مملكة غانة وعلاقتها بالحركة المرابطية (هل حقا قام المرابطون بغزو غانة؟)، الرباط: منشورات معهد الدراسات الإفريقية، 1997.

²² - Cuoq (J.), Histoire de l'islamisation de l'Afrique de l'ouest, pp. 133-134.

ونستخلص مما تقدم أن كيوك يكتب للمختصين أو لذوي الاهتمام الأكاديمي الدقيق، وما لم يتوفر القارئ على رصيد متين في هذا المجال، فقد يصعب عليه مسابرة أو مجاراة؛ فأعماله وإن اصطبغت بالوضوح إن على مستوى طرح القضايا أو تركيبها، فهي تنتمي لحقل الدراسات الأكاديمية بكل ما تحمل هذه العبارة من معنى ودلالة.

وككل عمل أكاديمي، فإن دراسات جوزيف كيوك المتعلقة بتاريخ إفريقيا جنوبي الصحراء خلال العصر الوسيط، لم تسلم من بعض الهنات، غير أنها تبقى بسيطة، بحيث لا يمكنها بأي حال أن تتال من كفاءته العلمية، نذكر منها:

أ . أخذه بالقول المأثور: "العامه على دين ملوكها"، واجتهاده في تطبيق هذه القاعدة على المجتمع السوداني، دون وعي منه بخصوصيات المجتمع المحلي في علاقته بالدين والمقدس، ثم في علاقته بالسلطة الحاكمة.

ب . مطالبة ابن بطوطة (وهو من رجالات القرن 14م) بضرورة التمييز ما بين الثقافة والدين !

ج . اعتقاده الراسخ بكون المؤلفين العرب خلال العصر الوسيط، خاصة منهم الجغرافيين، مستهلكين غير مبدعين في تعاملهم مع التقسيم البطليموسي للأرض. ونحسب أن مثل هذا الاعتقاد يعتره نوع من الإجحاف، ذلك أن الجغرافية العربية وإن اعتمدت التقسيم البطليموسي في أعمالها الوصفية أو الفلكية، فإنها تعاملت معه بحس نقدي متوقّد، كان له جميل الأثر على تطور علم الجغرافية خلال العصر الوسيط²³.

كما أوضحنا، قد نختلف مع كيوك في بعض القضايا الثانوية مثل التي وقفنا عليها أعلاه، بيد أن ذلك لا ينال من كفاءته؛ ونعتقد أن أهم انتقاد يمكن أن نوجهه لمجموع أعماله المتعلقة بتاريخ إفريقيا جنوبي الصحراء، يكمن في ضعف معرفته بالتطورات التاريخية التي شهدتها الصحراء، إن على مستوى المناخي أو البشري، وتأثير هذه التطورات على ضفتي الصحراء شمالا وجنوبا (بلاد المغرب وبلاد السودان).

²³ كراتشكوفسكي (أغناطيوس يوليا نوفتش)، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1978. ط. 2 مصححة ومنقحة، نقله عن الروسية: صلاح الدين هاشم، ص 20-21.

والغالب على الظن، أن جوزيف كيوك كان ضحية التمايزات البشرية والجغرافية الحاصلة فيما بين النطاقات الثلاث: بلاد المغرب وبلاد الصحراء وبلاد السودان؛ فكان ينظر لكل فضاء على حدة، ويتعامل مع الفضاء السوداني دون وعي عميق بامتداداته الصحراوية.

إن التجربة التاريخية للصحراء خلال الألف سنة الأخيرة قبل المرحلة الاستعمارية، تدلنا على أن المنطقة وإن ظلت محافظة على ديناميتها الاجتماعية المتميزة، فإنها في المقابل، كانت سريعة التأثر بالمتغيرات السياسية سواء على ضفتها الشمالية أو الجنوبية. ومما يشد الانتباه بهذا الصدد، أن القبائل الصحراوية، كانت سريعة الاستجابة لتلك المتغيرات، خاصة إذا كانت تساهم في تدعيم الأمن والاستقرار، إذ من شأن ذلك أن يجعل منها فاعلا حيويا في التجارة الصحراوية، مما يسمح برفع سقف الاستفادة بالنسبة لجميع الأطراف سواء أقاموا في الصحراء أو على هوامشها.

ولعل أهم النتائج المستخلصة من هذه الصيرورة التاريخية، أن الفضاء الصحراوي غالبا ما كان يشكل امتدادا ترابيا للوحدات السياسية القائمة على ضفتيه، وهذا ما تعكسه الخرائط التاريخية فيما بين القرنين 11- 17 للميلاد. والأمر سيان سواء بالنسبة لمملكة غانة، أو مملكة ومالي، أو مملكة كانم-برنو، أو مملكة سنغاي من جهة الجنوب، وأما من جهة الشمال، فيمكننا أن نقف على نفس الظاهرة مع المرابطين، أو المرينيين، أو السعديين.

إن توغل هذه الوحدات السياسية في أعماق الصحراء، شكل قاعدة جارية في الصيرورة التاريخية للفضاء الصحراوي قبل المرحلة الاستعمارية، ويظهر أن الاستعمار الفرنسي . سواء عن وعي منه أو بغير وعي . قد أخذ بعين الاعتبار هذا الجانب في رسم حدود الكثير من الدول الإفريقية.²⁴

ونرى أن مؤرخنا جوزيف كيوك، لم يتمكن من استكناه هذه الصيرورة التاريخية، من ثمة شقّ عليه متابعة تاريخ الصحراء الأطلنتية أو تاريخ مملكة كانم-برنو الممتدة على الصحاري المحيطة ببحيرة

²⁴ - بحكم المشاكل السياسية التي ظهرت حديثا: مشكل الحدود السياسية فيما بين ليبيا والتشاد، قضية الصحراء الغربية المغربية، ثم أخيرا مشكل انفصال شمال مالي (منطقة أزواد) وتأثير ذلك على الحدود الجزائرية المالية، ناهيك عن قضية دارفور، كل هذه القضايا الشائكة، تدفعنا لاستحضار إشكال أساسي: لماذا كانت القبائل الصحراوية في الماضي ترغب في الانضواء تحت سيادة الوحدات السياسية القائمة في الجنوب أو في الشمال؟ وما الذي جعلها اليوم تنزع نحو الاستقلال؟

التشاد، فجاءت تحليلاته ومعالجته التاريخية لأحوال مملكة كانم-برنو دون المستوى الذي عودنا عليه مقارنة مع كفاءته العالية حين تناوله لتاريخ مملكة مالي أو تاريخ مملكة سنغاي (13-16م)²⁵.

لقد شكل ضعف معرفته بتاريخ الصحراء أهم ثغرة رصّعت مجمل دراساته المتعلقة ببلاد السودان. ولو أردنا أن نتفهم الأسباب العميقة لهذه الهفوة، نستطيع القول، إنه كان ضحية التوجهات التي ترسمها أو بالأحرى تفرضها علينا المواد المصدرية العربية خلال العصر الوسيط، ثم المواد المصدرية العربية السودانية خلال القرنين 16-17م: مثل تاريخ الفتاش لأسرة كعتي، وتاريخ السودان لعبد الرحمن السعيد، ناهيك عن كتابات أحمد باب التتبيكتي.

وما من شك أن كل من أغرق نفسه في قراءة واستقراء هذه المواد المصدرية بالطريقة المجهريّة التي سار عليها جوزيف كيوك، سيحدّد الصحراء بالمعنى السلبي للكلمة. وتبعاً لذلك، يصبح الفضاء الصحراوي عبارة عن قنطرة لمرور السلع والأفكار، وليس مكاناً للإبداع في قهر المعطيات المناخية في سبيل الربط الاقتصادي والثقافي وحتى السياسي فيما بين بلاد المغرب وبلاد السودان²⁶.

وهناك مسألة أخرى غاية في الأهمية، بيد أن مؤرخنا لم يوليها العناية اللازمة في مجمل دراساته المتعلقة بتاريخ انتشار المسيحية أو الإسلام بإفريقيا جنوبي الصحراء خلال العصر الوسيط، وتتمثل في تجاهله التام للمقومات أو المعتقدات الروحية المحلية (الأرواحية)²⁷، السابقة عن الديانات السماوية (اليهودية، والمسيحية، والإسلام).

صحيح أن عناية مؤرخنا توجهت لدراسة صيرورة انتشار المسيحية ثم الإسلام بمنطقتنا، وصحيح أيضاً أن معلوماتنا عن الأرواحية، تكاد تكون منعدمة، خاصة إذا بحثنا عنها في المصادر المدونة

²⁵ - انظر ما كتبه عن مملكة كانم-برنو وقارنه بدراسة الباحثة الألمانية ديرك لانجي عند تحقيقه لديوان:

- Cuoq (J.), Histoire de l'islamisation de l'Afrique de l'ouest, pp. 229-270.

- Dierk (L.), Le Diwane des sultans du [Kanem-] Bornu : Chronologie et histoire d'un royaume africain (de la fin du X siècle jusqu'à 1808), Franz Steiner Verlag GMBH. Wiesbaden. 1977. ديوان

.سلاطين [كانم-] برنو (=

²⁶ - أحمد الشكري، "مقاربة تقييمية لدور الصحراء في علاقات بلاد المغرب ببلاد السودان خلال العصر الوسيط"، مجلة المناهل، عدد خاص عن الصحراء، رقم 58، 1998. ويراجع:

- Devisse (J.), « L'Afrique dans les relations intercontinentales », In HISTOIRE GENERALE DE L'AFRIQUE. T. IV. Unesco/NEA 1985. ch. 26, pp 693-730 .

²⁷ - راجع هامش رقم 9.

المحلية منها أو الأجنبية، على أن هذه التبريرات لا تعفيانا من تجاهل الموضوع برمته. ولو حاولنا أن نلتمس نوعا من العذر لهذا الموقف الملتبس من جانب مؤرخنا، لأمكننا القول إنه مرتبط أو نابع أساسا من موقفه المنهجي من الرواية الشفوية، والذي وقفنا عليه سابقا، علما أن الرواية الشفوية تحوي، بل إنها تمثل المصدر الأساس لجمل معلوماتنا عن الأرواحية.

ختاما، يمكننا القول إن أعمال جوزيف كيوك المتعلقة بتاريخ بلاد السودان خلال العصر الوسيط، تمثل صناعة متطورة بالمقارنة مع كل من سبقه في هذا الحقل المعرفي؛ غير أن تجربته الغنية هاته، لم تجد الاعتبار اللازم في المشروع الضخم الذي أطلقته اليونسكو مطلع عشرة السبعين من القرن الماضي برسم كتابة تاريخ إفريقيا العام (HISTOIRE GENERALE DE L'AFRIQUE)، والذي صدر في ثمانية أجزاء بلغات مختلفة منها العربية والفرنسية والإنجليزية الخ. وعلى فرض أن جوزيف كيوك كان منعزلا بنفسه في أحد أديرة جبال الألب، ما كان لأكبر مؤسسة ثقافية عالمية (اليونسكو) أن تتجاهل اسمه في كتابة تاريخ إفريقيا، خاصة بالنسبة للفترة المتعلقة بالعصر الوسيط السوداني²⁸.

²⁸- يظهر أن المشرفين على مشروع اليونسكو، حاولوا المزج ما بين شرط الكفاءة العلمية والاعتبارات السياسية في انتقاء أو انتخاب الأسماء المرشحة للمشاركة والمساهمة في هذا العمل الضخم، مما أثر سلبا على الحصيلة العلمية، حيث تصدرت اللائحة بعض الأسماء، التي لا تتمتع بخبرة أو كفاءة وحنكة كيوك. زد على ذلك أن النسخة العربية المترجمة عن الأصل الفرنسي أو الإنجليزي لا ترقى في الكثير من مواضع العمل إلى المستوى العلمي المطلوب. وبموازاة مع ما تقدم، فإني لا أفهم أيضا الطريقة المقتضبة والمبتسرة التي قدم بها ريموند موني مدونة كيوك، هل لأنه ينتمي للكنيسة ! انظر:

- Recueil des sources arabes, pp. XI- XIII.

- Collectif, HISTOIRE GENERALE DE L'AFRIQUE. Unesco/NEA 1985.